# أصل الروس عند ابن فضلان
# التاريخ الامبريالي في الهستوغرافيا الروسية

علي بدر(*)

902 عام حاسم في تاريخ أوروبا. في القرن الحالي، بعد الإنجاز العظيم للقرن العشرين يتجه التفكير إلى فتوحات القرون الوسطى، الرحلة الكبرى بعد استراحة الرحالة العظيم وإنجاز عمله، فإن التفكير يتجه لفهم النص الأثنوغرافي الأول في التاريخ عن الفايكنغ: رسالة ابن فضلان؟ للإجابة عk هذا السؤال، ما أفضل دليل للأنثروبولوجي الحديث؟ البطل، تحمله طاقة قرن كامل: طاقة التقدم في الطريق الوعر ورسم الخرائط، اقتصاد كوكبي لا رجعة فيه، استمرار لقصة الاكتشافات الكبرى. عند تلبية وقت الصلاة، يظل المؤمن أصلياً في داخله. يسافر كفنان، مع القليل من الزاد ورفقاء الطريق، يتوقع من خلال نجاحه تقوية لدينه. يفتح ابن فضلان «القرون الوسطى»، الطريق إلى أوراسيا عبر بخارى وجرجان العالم ما قبل الحديث أمم وثنية خارج البؤر الاستيطانية للعالم المسلم، فيعاد اختراع الذات، فإذا غادر المسلم حدوده الجغرافية اتضحت حدوده العقلية: هناك إنسانيات أخرى، مجتمعات من دون قرآن، ثقافات من دون إله! الصراع على الثروات أمام رجل من دين ثري ومن مجتمع ثري، جاء من بغداد جوهرة العالم القديم، أمام أوروبا في طور التكوين، أوروبا التي تصارع من أجل البقاء أمام أمة ثرية تعطي الأولوية لله والدين. اكتشاف ثقيل. تحت نظرة المؤرخ الحادة، تجد مزيدًا من الوضوح في صورة رجل، مؤمن متواضع، رافعة صغيرة ترفع الكون.

(*) باحث وكاتب عراقي مقيم في بلجيكا.

بدأ الأمـر كأنما صدفة: في بدايـة العام 1807 طلب ياروموفسـكي[1] وهو الـوصي الأول لمنطقة قازان التعليمية من المستشرق الروسي والمستعرب القديـر أولاف تيكزيـن تزكية شـخص ما لشـغل منصب أستاذ للغات الشرقية في جامعة قازان التي تأسست حديثاً، فقدم له على الفور اسم كريستيان فراين[2] بوصفه أفضل طالب عنده. في العام 1807 قبل فراين دعوة لرئاسـة قسـم اللغات الشرقية في الجامعة نفسـها وتلقى على الفور منصب أسـتاذ فألقـى محاضراته في اللغة العربية والأدب العربي هنـاك، ثـم نشر دراسـته الرائـدة الأولى المكرّسـة لوصـف 17 قطعةً نقديةً سـامانيةً[3] وبويهيةً لم تكن معروفةً حتى ذلك الوقت في أوروبا.

قـدم في السـنوات التاليـة وصفـاً للعديـد من المجموعات الخاصة من العملات الشرقية المحفوظة في قـازان ومـدن أخـرى، وإذ تنـاول بالتفصيـل العمـلات المعدنية المجهولة حتى ذلك الحين لمعرفة الممالك الإسلامية والسلالة السامانية والقبائل التي تسكن الفولغا والبولغار وبعض العملات الخاصة بممالك التتار.

لقد أدت دراسة هذه العملات إلى قيام المستشرق كريستيان فراين بالتحقيق في أماكن سكها وتوثيق التسلسل الزمني للسلالات التي أصدرتها والتدقيق في ألقـاب الحكام المنقوشـة عليها، حتى اسـتحوذ عـلى مجال علم الآثار الإسـلامي بأكملـه تقريباً في دائـرة أبحاثه. وأثناء عمله هذا حدثت نقطة تحول أساسـية سـتكون عواقبهـا كبيرة في حياتـه، لقد اكتشـف في العام 1835 مخزوناً ثريّاً عن السكان الروس القدامى في مصدريـن عربيين اثنين: الأول عثـر عليه في فهرس ابن النديـم فقد وجد عند هذا الببلوغـرافي العظيم وصفاً لنقش روسي غامض ما قبل السـيريلية، فكتـب عنه مقالة رائعـة والثاني وهـو الأهم عثر عليـه في معجم البلـدان للجغرافي العربـي ياقـوت الحمـوي الـذي عـاش في القرن الثالـث عشر الميلادي[4] حيث وجـد أول وثيقة عن الروس وسـكان الفولغا والبلغار والخزر مأخوذة من رسـالة أحمد ابن فضلان الذي عاش في القرن العـاشر الميلادي والتي كانـت ضائعة ذلك الوقت، فقـام بترجمة هذه الفقـرات إلى الألمانية، وصدرت على شكل رسالة ضمنها فيما بعد في كتابه بعنوان Numophylacium Orientale Pototianum صدر في ريغا: هارتمـان، 1813، وهو كتاب كبير ضم جميع مقالاتـه وبفضل هذه الترجمات تحول كريسـتيان فراين بعد سـنوات من عالم لاهوت في الأدب التوراتي إلى مستشرق عالمي.

إن ترجمـة كريسـتيان فرايـن للفقـرات التي أوردهـا ياقـوت الحمـوي في معجمه قد أشـعلت نقاشاً حاداً طوال القرن التاسع عشر بين فئتين من المثقفين الروس الأولى: تتمسك بالتاريخ الذي قدمه المـؤرخ الروسي ورجـل الدولة وعالـم الأثنوغرافيا

(1) Ibn-Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit. Francfort-sur-le-Main: Inst. for the History of Arab.-Islamic Science, 1994, réimpression de l،édition de Saint-Pétersbourg de / Institute for the History of Arabic-Islamic Science at the Johann Wolfgang Goethe University, Frankfurt am Main.

(2)كريسـتيان دانيلوفيتـش فرين ولـد في العام 1782 في روسـتوك، دوقية مكلنبورغ شفيرين وتوفي في العام 1851 في سانت بطرسبرغ مسـتشرق ألماني روسي، جامع عملات عمل كأسـتاذ في قسـم الدراسـات الشرقية والإسـلامية في جامعة قازان (1815-1807) ثم عمل كأستاذ في أكاديمية سـان بطرسـبرج للعلوم في العـام 1817، في عـام 1818 أسـس المتحف الآسـيوي التابع لأكاديمية العلوم وترأسـه حتـى عام 1842 . عضو فخري في أكثـر من 20 أكاديمية وجمعيـة علميـة في العالم. مؤلـف أكثر من 150 دراسـة منشورة باللغة الألمانية واللاتينية والعربية.

(3)السامانيون أو الدولة السامانية سلالة فارسية حكمت بلاد مـا وراء النهر وأجزاء من فارس وأفغانسـتان ما بين 999-819/74 م، عاصمتها بخارى.

(4) يطلـق فراين لقـب «الجغـرافي الرومي» عـلى ياقوت الحموي مذكراً بأصله غير العربي.

والفيلسوف فاسيلي نيكيتيش تاتشييف[5] والذي كتبه على أسس وطنية محلية تتعلق بظهور القبائل السلافية من شرق أوروبا، أي في المكان المحلي حيث تعيش، والثانية هي التي قبلت بالتأويل أو التفسير الذي قدمه المؤرخون الألمان الثلاثة بالقرن الثامن عشر، وهم جيرهارد فريدريش مولر (1705-1783)، غوتليب سيغفريد باير (1694-1738)، وأوغست لودفيغ شلوتسر (1735-1809)، وهو أن الأصل الروسي جاء من الفايكنغ والقبائل الفارنيجية[6] التي قدمت من السويد والنرويج واندمجت مع القبائل السلافية على طول الأرض الروسية حيث نقطة التقاء نهر الفولغا قرب قازان. وهذه في الواقع هي المنطقة التي وصلها ووصفها ابن فضلان في واحدة من أهم وأمتع المصادر التاريخية عن مجتمعات ما قبل الحداثة في العصور الوسطى الأوروبية.

خصص ابن فضلان جزءاً كبيراً من رسالته لوصف الروس بطريقة مدهشة وبوصف قل نظيره، ويتفق معظم المؤرخين بأنهم من الفارنجيين، مما يجعل رواية ابن فضلان واحدة من أقدم الصور عن الفايكنغ. فهم تجار شقر طوال القامة كالنخل وجلودهم البيض الوردية موشومة من "الأظافر إلى الرقبة" بصور الأشجار والهيئات ومسلحون على الدوام بفأس وسكين طويلة، أقاموا متجراً على ضفاف النهر بالقرب من مدينة بولغار. كما صور علاقتهم مع النظافة، وكيف يغسلون وجوههم ويتمخطون في إناء واحد يدار عليهم، وصورهم وهم يمشطون شعرهم، كما دقق في عاداتهم في الأكل والشرب والبيع والشراء والموت والجنس.

لقد تركت رحلة ابن فضلان، كمدونة إثنوغرافية تأثيراً بالغاً على جميع الدراسات الخاصة بالعصور الوسطى فلم تكن فقط مغامرة استكشاف إنما هي سجل جيو-تاريخي وإثنوغرافي فريد من نوعه عن الأطراف الشمالية لأوراسيا في القرن العاشر الميلادي وهي بمثابة وثيقة لا مثيل لها في الوصف والعمق تستكشف عادات ومجتمعات وأماكن وشعوب وسط أوراسيا خارج البؤر الاستيطانية للعالم الإسلامي، وكل هذه القوة والفعالية التي امتلكتها الرحلة قد حدثت قبل قرون من رحلة روبروك، وماركو بولو، وابن بطوطة، وكلافيجو، وقد تفوقت روايته على رواياتهم جميعاً في وصفها لشعوب وأماكن وسط أوراسيا، ولا سيما رواياته عن البولغار والخازار والروس. ونتيجة لذلك، كانت رواياته لا غنى عنها في التحقيق وتحليل تاريخ الفايكنغ والروس، ما ساعد المؤرخين وعلماء الآثار واللغويين على توضيح تاريخ كان مجهولاً بصورة طبيعية.

لقد استخدم أحمد بن فضلان وفريقه طرق القوافل الراسخة نحو بخارى التي أصبحت الآن جزءاً من أوزبكستان، ولكن بدلاً من اتباع هذا الطريق إلى الشرق التفتوا شمالاً في ما يعرف اليوم بشمال شرق إيران، وغادر مدينة جرجان بالقرب من بحر قزوين، وعبروا الأراضي التابعة لمجموعة متنوعة من الشعوب التركية. لقد كان الخزار هم

(5) ولد تاتشيف، بالقرب من بسكوف في 19 أبريل 1686. بعد تخرجه من مدرسة المدفعية والهندسة في موسكو، شارك في حرب الشمال الكبرى مع السويد 1700-1721. في خدمة بطرس الأكبر، حصل على منصب بارز في وزارة الخارجية والذي استخدمه لمعارضة سياسات المجلس الملكي الأعلى ودعم صعود آنا إلى العرش الروسي في عام 1730.

(6) في مناهضة النورماندية انظر المصادر التالية:
The Emergence of Rus: 750–1200. Simon Franklin, Jonathan Shephard. Longman Publishing Group, 1996 . The Origin of Rus›. Omeljan Pritsak. Harvard University Press, 1981 . The Primary Chronicle›s ‹Ethnography› Revisited: Slavs and Varangians in the Middle Dnieper Region and the Origin of the Rus› State. Olksiy P Tolochko; in Franks, Northmen and Slavs. Identities and State Formation in Early Medieval Europe. Editors: Ildar H. Garipzanov, Patrick J. Geary, and Przemysław Urbańczyk. Brepols, 2008.

من أهـم المجموعات التي التقـوا بها، وهي خانات دينية فريدة من نوعها كانت واحدة من الشـعوب القليلة التي تبنت اليهودية وسط المناطق المسيحية والإسـلامية. كمـا سـجل لقاءاته مـع الأوغوز على السـاحل الشرقي من بحر قزوين، والبيشنيغ على نهر الأورال، والبشـكيين في ما يعرف الآن بوسـط روسـيا. وإجمالاً قطع الوفد حوالي 4000 كيلومتر حتـى وصوله عاصمة الفولغـا بولغار في 12 مايو 922. عندما وصلوا، قـرأ ابن فضلان بصوت عال رسالة من الخليفة إلى الخان وقدم له الهدايا، ومع أنـه كان رجلاً ذا مظهـر وكرامة ملفتتـين ولكنه تـرك ابن فضلان خائفاً وحزينـاً، حيث ألقى اللوم عليـه لعدم إحضاره المال الموعود من الخليفة لبناء حصن ضد الخزر.

## النظرية السلافية المحلية

كان أول مـن قدم أسـس التاريـخ الروسي على أسـس وطنيـة محلية تتعلـق بالتراث السـلافي[7] والثقافـات المحيطـة بـه هـو فاسـيلي نيكيتيش تاتيشـيف (1686 – 1750)، وهو مؤرخ، ورجل دولـة روسي إمبراطـوري بـارز، وعالـم إثنوغرافي أيضـاً. وكان انشـغاله في التاريـخ في بدايـة الأمر لغـرض الدفاع عن فكرة الاسـتبداد كشـكل مثالي للحكومة في روسـيا، إلا أنه انخرط فيما بعد بعمل سياسي كبير في خدمة بطرس الأكبر ومن ثم في دعم صعود الامبراطورة آن إلى العرش الروسي في العام 1730، والعامـل الحاسـم هو مشـاركته في حرب الشـمال الكبرى التي حدثت بين روسـيا والسويد مـن العـام 1700 إلى العـام 1721 وهـذه أثرت جـداً على نظريته التاريخية فقد بنيت الحساسـية الروسـية للتاريخ من خلال رد الفعل ضد الأطماع الامبرياليـة السـويدية. وعند تقاعـده كرس رجل الدولة المسن نفسه للمهام العلمية. مع شعوره بأن التأريخ الروسي ذلك الوقت قد تم إهماله، فقد ألف ونشر أول مدونة تاريخية بعنوان التاريخ الروسي الذي يعود إلى العصور القديمة من 5 مجلدات، كما عمل أيضاً على أول موسوعة تاريخية على الحروف الأبجدية باللغة الروسية.

ومع ذلك بقي هذا التاريخ لا يمس حتى ظهرت نظريـة المؤرخـين الألمان الثلاثـة، والتـي دعمتها الفقرات التي ترجمها المسـتشرق كريستيان فرين عن ابـن فضلان، لقد جاءت الضربـة الكبرى لهذا المؤلـف الـذي عاش الـروس عليـه طويلاً شـعباً وأباطـرةً من مكان غير متوقع أبـداً "من بغداد"، مـن الرسـالة التاريخيـة الفريدة مـن نوعها هي رسالة أحمد بن فضلان.

لقد أدى نشر هذه لفقرات المنتزعة من رسـالة ابـن فضلان والموجـودة في معجم البلـدان لياقوت الحمـوي إلى التشـكيك في المزايـا العلميـة لتاريخ تاشـييف، صحيح أنه اسـتخدم بعض السجلات التـي فُقدت منذ ذلك الحين، ممـا دفعت المؤرخين للإقـرار بأنها بيانـات فريدة من هـذا المؤرخ الفذّ ولكـن جعـل العديـد مـن المؤرخـين يشـكون في صحتهـا. حتى غدا من غير الممكن أبداً التمييز بين العمـل الحقيقي فيها والمزيـف، وقد تكون بعض الحـوادث المدرجة في تاريخه هي مـن نتاج خياله الخاص.

## أصـل مناهضـة النورمانديـة ورسـالة ابـن فضلان

بدأت النزعة المناهضة للنورماندية في الدراسات الحديثة للروس عندما دُعِيَ المؤرخ الألماني جيرهارد

(7)تقدم إلينا ملينكوفا خلاصات وافية عن أصل الصراع فيما يطلق عليه بمناهضة النورماندية في الثقافة الروسية. Elena Melnikova, ‹The «Varangian Problem»: Science in the Grip of Ideology and Politics›, in Russia›s Identity in International Relations: Images, Perceptions, Misperceptions, ed. by Ray Taras (Abingdon: Routledge, 2013), pp. 42–52

فريدريـش مولـر[8] (1705-1783) للعمـل في الأكاديمية الروسـية للعلوم في عام 1725 [9]. فقدم مولر بحثاً عن أصـل الروس بحضور الإمبراطورة الروسـية ومجموعـة كبيرة مـن المؤرخين الروس، قام به من قبل سـلفه غوتليب سـيغفريد باير[10] (1694-1738) المنشـور في أوريجنس روسيكا. وقد كشـف مولـر أن روسـيا بالاسـم والسـلالة الحاكمة المبكرة قادمة من إسكندنافي فارانجيني. لكن هـذا البيـان تسـبب الكثير مـن الضجة عند جمهـوره الروسي وقد قاطعوه ولـم يدعوه يكمل، ثم ناشـد رئيس الأكاديمية والإمبراطورة الروسية إلى هدوء الحشد، وطالبت بتشكيل لجنة لتحديد ما إذا كان بحثـه «ضار لمصالـح ومجد الإمبراطورية الروسـية أم لا».[11] وقد واجه مولر أمام الجمهور انتقـادات لاذعـة مـن قبـل الفيلسـوف الـروسي لومونوسوف ، وعالم الطبيعيات والجغرافي الشهير كراشـينينيكوف[12]، ومن مؤرخـين روس آخرين أجـبروا مولـر على تعليـق عمله في هـذه القضية، وبالفعـل لم يتمكن نـشر موضوعـه إلا بعد وفاة لومونوسوف[13].

إن فرضيـة مولـر – بايـر النورماندية تقول بأن الروس هم شـعوب اندمجت مع الفايكنغ عند نهر الفولغا، أي أنهم نرويجيون، نشـأوا أساسـاً في السـويد، واسـتقروا وحكمـوا عـلى طول طرق النهـر بين بحر البلطيق والبحر الأسـود، من نحو القـرن الثامن إلى القـرن الحادي عـشر الميلادي. وقـد شـكلوا الدولـة المعروفة باسـم روس كييف التي كانت في البداية مجتمعاً متعدد الأعراق حيث الحاكـم نورسـيمين دمجها مع القبائل السـلافية أو أن القبائل السـلافية هي التي اسـتوعبتها عند بحر البلطيق. وتنتمي لغتها إلى السويدية القديمة وتختلط مع اللغة السلافية التي تشكل الجذر الأولي للغات الشرقية السلافية. وكانت النخبة في "كييف روس" الأصل الأولي للحكم في روسـيا وكانت حتى ذلك الوقت على دراية بالإسـكندنافية القديمة التي لم يتمّ اسـتيعابها حتى النصف الثاني من القرن الحادي عشر، بينما بقيت الاسكندنافية المحكية في المناطـق الريفية حتى القـرن الرابع عشر أو حتى وقت مبكر من القرن الخامس عشر.

على الرغم من الاسـتقبال السـلبي في منتصف القـرن الثامن عشر، ولكن في بداية القرن التاسـع عشر حين نشر كريستيان فراين النص غير المكتمل لعمل ابن فضلان أخذت هذه النظرية تتوسع شيئا

(8)جيرهارد مولر ( Gerhard Friedrich Müller) ( 1705 – 1783) مستكشف، ومؤرخ، وأستاذ جامعي من الإمبراطورية الروسية، ولد في هرفورد، وكان عضواً في الجمعية الملكية، والأكاديمية الروسية للعلوم، والأكاديمية الملكية السويدية للعلوم، توفي في موسكو، عن عمر يناهز 78 عاماً.

(9) راجع المصدر السابق ص 80.

(10) غوتليـب سـيغفريد بايـر (Gottlieb Siegfried Bayer) (1694-1738) ،عالـم ألماني في الكلاسـيكيات ومتخصص في السـنيولوجيا والآثار الرومانية اليونانية في أكاديمية سـانت بطرسـبرغ للعلوم بـين 1726 و 1737.

(11) ميخائيـل لومونوسـوف هـو عالم روسي مشـهور، مؤسس جامعة موسـكو الحكومية. عاش في القرن الثامن عـشر. ولد في 19 نوفمبر عام 1711 بقرية دينيسـوفكا في روسـيا الشـمالية وتوفي في 15 أبريل عام 1765 في مدينة سـانت بطرسبرغ. وهو مشهور باكتشـافه لوجود الغلاف الجـوي عنـد كوكب الزهـرة. وقـام بمسـاهمات مهمة في مجالات علمية عديـدة مثل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والاقتصاد والتاريخ وغيرها.

(12) سـتيبان بتروفيتش كراشيننكوف (1711- 1755) مستكشـف روسي وعالـم كبيعيات وجغرافيـا، أعطى أول وصف كامل لجزيرة كامتشـاتكا في القرن الثامن عشر، تم انتخابـه في الأكاديمية الروسـية للعلـوم في عام 1745. تم تسمية بركان كراشينينيكوف في كامتشاتكا على شرفه.

(13) لذلـك كان يعتقد طـوال القرن العشريـن أن الكثير من أبحاثه قد تم تدميرها ، لكن الأبحاث الحديثة تشـير إلى أن الأمـر ليس كذلك: تمكن مولـر من إعادة صياغته وأعيد طبعه بعنوان أصل الروس في عام 1768.

فشيئا، ولكن الاعتراضات عليها كانت قائمة على 3 أسس.

1 -أن العرب يستخدمون كلمة روس لوصف شعوب مختلفة كما ورد عند ابن رسته، وخردابذه، والمسعودي وغيرهم.

2 - إن أصل الرحلة ضائع ولا نعرف القصة الحقيقية للرحلة.

3 - وقد أثار المستشرقون المعارضون أيضاً نقطة جدالية أخرى سياسية فيما يتعلق بتأثير رحلة أحمد بن فضلان إلى وسط أوراسيا وروايته التسجيلية، فقد زعموا أن جهود ابن فضلان الرامية إلى ترسيخ الشريعة الإسلامية والدين في تلك المنطقة من وسط أوراسيا كانت مقدمة لصراع الحضارات، فخلال هذه المدة التاريخية، ظهرت عقيدتان دينيتان جديدتان في المنطقة نفسها من وسط أوراسيا في روسيا الحالية هما المسيحية الأرثوذكسية والإسلام، وهما دينان متعارضان وبما أن ابن فضلان كان مبشراً ومثبتاً للإسلام وتطوره في تلك المنطقة، فهو مسؤول جزئياً عن الصراع الديني والتوتر اللاحقين اللذين أعقبا ذلك. ولكن في الحقيقة أن هذا الجدال العقيم يبسط التاريخ المعقد ويرده إلى وحدات بسيطة وعدائية ويغفل التطورات المحلية والهيكلية للتاريخ، علاوة على أن ابن فضلان عمل على مواجهة أي صراع أو صدام بين مجتمعين من الشعوب من خلال المفاوضات والهدايا لقد كان يحاول تفهم المجتمعات اللا إسلامية بكسر الحدود التقليدية للمؤمن المتدين وخطوط التمييز التي تعزز الصراع ويعتمد العلاقة الثقافية واسطة ضرورية.

من الجوانب الجديرة بالملاحظة في الفولغا بولغار التي ركز عليها ابن فضلان هو دينهم ومؤسسة الإسلام في هذه الأراضي. فلم يكن الإسلام قد تمت قوننته أو تثبيته في الهيكلية العامة للقانون. وفي النهاية لم يكن لاهوتياً قد تطور بعد ولا فلسفياً في هذه المناطق. ونتيجة لذلك، فإن العديد من هذه الشعوب التي اعتنقت الإسلام حديثاً في الأراضي الأوراسية الوسطى لم تدمج الإسلام بالكامل أو تنفذه حرفياً بالطريقة التي كان يراها ابن فضلان بوصفه فقيهاً صحيحة. وبالتالي فإن العديد من الأمم كانت تمارس شكلاً من أشكال الإسلام غير الكامل وغير السليم عقائدياً بالنسبة للملتزمين بالرمز والحرف من النص الديني أو اللاهوتي أو العقائدي، فلم يكن هذا الصراع الذي شهدته المنطقة في زمنه إنما في أزمان لاحقة وبعيدة زمنياً عن عصره.

## المخطوطة الضائعة

لفترة طويلة، لم يعرف الغرب سوى نسخة غير مكتملة من رسالة ابن فضلان، وهي بطبيعة الحال كما وردت في معجم البلدان لياقوت الحموي مبوّبة (تحت عناوين بولغار، خزار، خوارزم، روس)، نشرت في عام 1823 من قبل كريستيان فراين كما أسلفنا. لكن لم يكتشف المخطوط كاملاً إلا في العام 1923 من قبل الباحث التركي من أصل باشكيري هو زكي صالحي طوقان[14]، وقد عثر عليها في متحف القدس فيستان، في مشهد، في إيران.

كان زكي صالحي طوقان شخصية ذات نفوذ طاغ في النصف الأول من القرن العشرين، ولعب اكتشافه للمخطوطة دوراً كبيراً في تغيير حياته، فبالرغم من أنه ولد في إسطنبول في العام 1890 الا أنه عاش ودرس في قازان المدينة التي وصل لها ابن فضلان في القرن العاشر الميلادي، واطلع على نص ابن فضلان غير المكتمل من خلال ما نشره فراين الذي درس قبل قرن في الجامعة

(14) هذا الفصل الذي كتبه كمال كدافار وحقان كراتيك يشمل نضال المجتمعات الناطقة بالتركية في الحقبة الإمبراطورية الروسية والسوفيتية.

Late Ottoman and Early Republican Turkish–Historical Writing, Cemal Kadafar and Hakan T. Karateke, The Oxford History of Historical Writing: Volume 4: 1800–1945, 574.

نفسها التي تخرج منها طوقان. لكن حياته أخذت منحىً آخر طبقاً إلى المرحلة القاسية التي عاشتها تلك المناطق أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها، حيث عمل في مكتب قومي يدعم النواب المسلمين في مجلس الدوما الروسي، ومن ثم أسس مع ماناتوف تنظيم مجلس شورى الباشكير في العام 1917، الذي أعلن في ديسمبر من العام ذاته استقلال باشكورتوستان وبعد اعتقاله في العام 1918 من قبل القوات السوفيتية تمكن من الفرار وانضم إلى القوات التي واجهت البلاشفة.

وفي مذكراته[15] التي نشرها في العام 1944 يصور الحياة السياسية والقومية التي عاشتها هذه المناطق بقسوة في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تحت الحكم الامبراطوري الروسي ومن ثم تحت الحكم السوفيتي، وقبل عثوره على المخطوطة خاض حياة درامية صعبة فقد قاتل أولاً مع قوات بشكير فيليدي تحت قيادة أتامان ألكسندر دوتوف ثم تحت قيادة الأدميرال كولتشاك ضد القوات البلشفية ولكن بعد أن وعدت جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية البشكير بالحكم الذاتي غير أحمد زكي طوغان ولاءه وقاتل مع البلاشفة. وبعد أن شعر البلاشفة قد نكثوا بوعودهم انتظم إلى (بصمجي حركت)[16] في تركستان حتى العام 1923، فلما بدأت مطاردته في تلك الفترة هاجر إلى إيران لفترة من الزمن، ولكنه أثناء زيارته لمشهد، لضريح الإمام علي الرضا اكتشف وجود مخطوطات أصلية في متحف القدس فيستان ومنها مخطوطة أصلية لرسالة أحمد بن فضلان.

هذا الاكتشاف العظيم للمخطوطة لعب دوراً كبيراً في تغيير حياته، حيث انتزعه من هذه الحياة الثورية غير المستقرة ليصبح أستاذاً للدراسات الشرقية في جامعة فيينا ومن ثم جامعة بون ومن ثم جامعة غوتنغن، وبعد ذلك أستاذاً ومؤسساً لمعهد الدراسات الإسلامية في إسطنبول، غير أن الحظ السيء رافقه في العام 1944 حيث شارك في الاحتجاجات لدعم حسين نهال أتسيز[17] الذي كان قيد المحاكمة فتم اعتقال أحمد زكي وليدي طوغان مع أتراك آخرين مثل ألبارسان تركيش، وأتسيز تركان، وحكم عليه بالسجن لمدة 10 سنوات مع الأشغال الشاقة. ولكن بعد عامين أفرج عنه. وبالرغم من كل هذه المسيرة السياسية الحافلة إلا أن شهرته الأكبر كانت باكتشافه للمخطوطة الأصلية لعمل ابن فضلان الخالد.

تعود المخطوطة التي اكتشفها أحمد زكي وليدي طوغان إلى المكتبة الريداوية، تحت مصنف MS 5229 وتعود إلى القرن الثالث عشر (القرن السابع الهجري) وتتكون من 420 صفحة (210 فوليا). وهنالك نسخة أكمل من نص ابن فضلان فيها مقاطع إضافية غير موجودة في نسخة مشهد MS 5229 عثر عليها في عمل الجغرافي أمين رازي[18] في القرن السادس عشر، في كتابه هافت إقليم («سبعة مناخات»). وهذا الجغرافي من العهد الصفوي أكمل موسوعته في العام 1593

(15) Zeki Velidi Togan MEMOIRS: National Existence and Cultural Struggles of Turkistan and other Moslem Eastern Turks

(16)للتوسع في معرفة بصمجي حركت في تركستان
Paksoy, Hasan (June 1995), «Basmachi Movement from Within: Account of Zeki Velidi Togan», Nationalities Papers, 23 (2): 373–399.

(17)حسين نيهال أتسز (بالتركية: Nihal Atsız) (1905 – 1975) كاتب تركي ومنظّر ذو أفكار طورانية شمولية. محرر لأكثر من ثلاثين كتاباً ولعدد كبير من المقالات. كان معارضاً قوياً لحكومة عصمت إينونو، الذي انتقد تعاونه مع الاتحاد السوفياتي.

(18)ولد أمين رازي في الري، بلاد فارس في عائلة مرموقة. كان والده كفاجيه ميرزا أحمد عمدة ري بتعيين طهماسب الأول (حكم 1576–1524). كان عمه خواجة محمد الشريف شاعر ووزير لحاكم خراسان ولاحقاً للشاه.

وهي مرتبة حسب «المناخ» ، أي التقسيم الرئيسي وفقًا لبطليموس. في عام 1937 ، تبرعت الحكومة الإيرانية بصورة من رسالة ابن فضلان إلى أكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. وعلى أساسها قام المستشرق الروسي أندريه كوفالسكي[19] A.P. Kovalevsky بترجمتها ونشرها في العام 1939 تحت إشراف وتحرير المستشرق الروسي الكبير أغناطيوس كراتشوفسكي[20]. في العام ذاته ظهرت ترجمة ألمانية لابن فضلان من قبل أحمد زكي طوغان في فرانكفورت، بينما صدرت الطبعة الثانية المنقحة من نص الرحلة في العام 1956 في موسكو من قبل كوفاليفسكي. وصدرت الطبعة الفرنسية عن دار سندباد في العام 1999 مترجمة من قبل ماريوس كانار على النص الذي نشره كوفالسكي وباشراف كراتشوفسكي.

## ابن فضلان الآن

في الواقع أن رحلة ابن فضلان ونصها الإثنوغرافي قد فتحت مجال الدراسات الخاصة بالقرون الوسطى في الغرب ولا سيما في جانبها اللغوي المركزي على مصراعيها، وأطلت على حقائق التداخل الثقافي والفكري والأثني، وقدمت مصدراً لا يقدر بثمن لفهم المواجهات الثقافية والعرقية والسياسية التي حدثت في عصر ما قبل الحداثة، متخطية كماً هائلاً من التضاريس الثقافية واللغوية.

يعرف الكثير من الغربيين اليوم ابن فضلان علماء أدب، سياسيون، صحفيون، رحالة عاديون، طلاب أدب، وحتى جمهور عادي بعد رواية آكلة الموتى لكريشتون، وفيلم المحارب الثالث عشر الذي مثله أنطونيو بونديراس غير أنهم يصلون إلى صورة مزدوجة بين صورة الرحالة العربي الذي سافر شمالاً في القرن العاشر الهجري مع شخصية بيوولف الأسطورية والتي أنتجها الأدب الأنكلو سكسنوي في القرن السادس الميلادي. فقد فتح هذا الاقتران بين البطل الكنسي للتقاليد الأنجلو سكسونية مع الرحالة العربي التاريخي مجال دراسات العصور الوسطى لفهم المعايير الأخلاقية والجنسية والعادات والتقاليد، ومعاملة العبيد والنساء، وتقاليد الدفن، وعادات التجارة، كل ذلك شرحه ابن فضلان بالتفصيل بطريقة أذهلت العلماء.

فقد أطلقت هذه الرسالة عند اكتشافها الجدل النورماندي في ثلاث ثقافات أوروبية وهي الروسية والألمانية والسويدية، وهي من أكثر القضايا إثارة للقلق في بدايات التاريخ الروسي. فقد حسمت الجدل بين الفئة التي تركز على درجة التأثير الاسكندنافي على أول تشكل حكومي للروس فيما يطلق عليه في إمارة "كييف روس"، وخصومهم المناهضين للنورماندية من السلافيين الذين يعتقدون أن الأثر النورماندي هو إما حجة للإمبريالية السويدية للتوسع في الأراضي الروسية، أو نظرة عرقية ألمانية لإشاعة أن العرق الروسي في جوهره غير قادر على بناء دولة وحكم إلا من الخارج. فقد تشكلت نقاشات القرن التاسع عشر المشبعة بالتنافس القومي الألماني الروسي والصراع الروسي السويدي على مؤشرات أثنية ولغوية بعيدة أي في البحث عن كلمات نرويجية باللغة الروسية، أو عن التطور المستقل لقانون روسيا والقانون الاسكندنافي والأصل الهندو أوربي المشترك لكل من الآلهة واللغتين الاسكندنافية والسلافية، إلى ظهور رسالة ابن فضلان، فقد جعلت هذه الرسالة من خلاف المدارس النورماندية والمناهضة للنورمانوية الذي كان راسخاً بقوة طوال القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، خلافاً أثرياً إلى حد بعيد.

(19) أندري بتروفيتش كوفاليفسكي ( 1 فبراير 1895 ، مقاطعة راسوخوفاتوي خاركوف – 29 نوفمبر 1969 ، خاركوف ) – مستشرق سوفيتي ، مؤرخ – مستعرب ، عالم إثنوغرافي ، مدرس ، متخصص في شعوب أوروبا الشرقية . دكتوراه في العلوم التاريخية . مؤلف أول ترجمة روسية للنص الأكثر اكتمالاً من «رسالة ابن فضلان». نجل المنور في القرن التاسع عشر PG Kovalevsky.

(20) إيغناتيوس كراتشوفسكي مستشرق روسي كبير ولد في العام 1883 ،وتوفي في العام 1951 في لينينغراد، عمل في الأكاديمية الروسية للعلوم (منذ 1921؛ ومنذ 1925 –أكاديمية العلوم السوفياتية) أحد مؤسسي مدرسة الدراسات العربية السوفيتية، أحد مؤلفي الطبعة الأولى من «موسوعة الإسلام».